شخصيات تراثية :

القاضي الفاضل

[٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ / ١١٣٥ ـ ١١٩٩ م]

د . لبيبة إبراهيم مصطفى محمد *

هو أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ، العسقلاني المولد[١] . كان من أبرز الشخصيات التي ارتفعت مكانتها وعلا نجمها في أفق الدولة الأيوبية ، وذلك لما قدمه من خدمات جليلة في مجال السياسة والجهاد ، بالإضافة إلى كونه علماً من أعلام الأدب العربي ، وصاحب مدرسة فنية مميزة في الكتابة والبلاغة .

كان القاضي الفاضل رجلاً أتاحت له ظروفه ومنصبه أن يعاصر ثلاثة عهود من الحكم المصرى ، ذات ألوان وأساليب متباينة ؛ فالمعروف تاريخيا أنه شهد نهاية وسقوط الدولة الفاطمية الشيعية ، وما صاحب ذلك من الفوضى السياسية التي حلت بالبلاد . كذلك شهد قيام دولة بني أيوب السنية ، وقيام الوحدة بين مصر والشام على يد صلاح الدين الأيوبي ، وماصنعه صلاح الدين في مصر من قوة عسكرية ، ونظام إداري حازم . وشهد أخيراً تفكك الإمبراطورية المصرية الصلاحية ، وكيفية تقسيمها بين أبناء البيت الأيوبي ، والمنازعات والصراعات التي حدثت بين الأسرة الأيوبية من أجل السلطة والحكم .

كان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء في عهدي أسد الدين شيركوه ، وصلاح الدين الأيوبي ، وهو الذي كتب تقليد الوزارة لكليهما من قِبَل الخليفة العاضد الفاطمي[٢] ، وأصبح المتحدث الرسمي بلسان صلاح الدين الأيوبي في الداخل والخارج ، «وكان أعز عليه من أهله وأولاده»[٣] .

(*) كبير باحثين بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

(١) انظر ترجمته في ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق د . إحسان عباس ، بيروت ـ دار صادر ، ١٩٦٨م ، ج٣ ، ص١٥٨ ـ ١٦٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق د . محمود الطناحي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ـ ١٩٧١م ، ج٧ ، ص١٦٦ ـ ١٦٨ .

(٢) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، سلسلة تراثنا ، القاهرة ، ١٩٦٣م ،ج١٠ ، ص٨٠ ، ص٩٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٧م ، ج ١٣ ، ص٢٧

وكان السلطان صلاح الدين يُشيد بفضله ويقول : « لاتظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل»[١] .

وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة ، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين ، إذ جعله « وزيره ومشيره ، بحيث كان لا يُصدر أمرًا إلا عن مشورته ، ولا يُنفذ شيئا إلا عن رأيه ، ولايحكم في قضية إلا بتدبيره»[٢] .

صحب القاضي الفاضل الناصر صلاح الدين في معظم فتوحاته ببلاد الشام ، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ، ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول ، وبعدئذ عاد إلى بلاد الشام وظل بالقرب من صلاح الدين وبجواره حتى مرضه الأخير ، وحضر وفاته هو والقاضي ابن شداد سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م[٣] .

وفيما يلي بعض مواقفة التي تؤكد ماذكرناه عن مكانته وعلو منزلته عند صلاح الدين ، وعند أبناء البيت الأيوبي جميعا .

لقد حضر القاضي الفاضل الكثير من فتوحات صلاح الدين في بلاد الشام ، ولكن مرضه منعه من حضور فتح بيت المقدس[٤] ، على الرغم من وجوده في دمشق في تلك الأثناء . لذلك لم ينس صلاح الدين في غمرة فرحته بهذا الفتح العظيم المبارك وزيره ومستشاره القاضي الفاضل ، فأرسل إليه رسالة يبشره فيها بهذا الفتح ، ومن خلال كلمات هذه الرسالة يتضح مدى ما كان يكنه صلاح الدين من حب واحترام وتقدير لهذا القاضي الأجل ، متمنيًا لو أنه كان بحضرته في ذلك الوقت حتى تتم فرحته بما مَنَّ الله به عليه من نصر .

ومما ورد في هذه الرسالة : «وما كان يعوزنا ويعوزه إلا حضور المجلس السامي أسماه الله ، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه ، ولا للأنس لقاء إلا بأنس لقائه ، وكاد يتصحف الفتح

---

(١) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر د .ت ؛ ص٢٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية د .ت ، ج٦ ، ص١٥٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، شيكاغو ، ١٩٠٧م ، ج٨ ، ص٣٠٤ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ، ج٧ ، ص١٦٦ ـ ١٦٨ ؛ المقريزي : الخطط ، القاهرة ـ مطبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، ج٢ ، ص٣٦٦ .

(٣) راجع ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧م ، ج٢ ، ص٤٢١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٤) كان فتح بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / سبتمبر ١١٨٧م .

لولا صالح دعائه ، وحسن آلائه . والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصية ، وفضلنا بالنصرة القدسية ، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية ، والحمد لله على هذه النعمة السنية ، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه ، وما أظمأنا وأظمأه إلى خلاص الرَّيّ به وعمومه ، ويلحظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته ، وما آنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته ، ونحن نعرف أن همته العاليه تحدوه ، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه ، ونسأل الله أن يُكمل صحته وينعش قوته ، ويقوي نهضته ، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره ، وترتيب أمره وتدبيره»[١] .

وفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م عندما هَمَّ صلاح الدين لاستكمال فتوحات ساحل الشام ، بدأ بزيارة القاضي الفاضل ، وزيره وصاحبه ، ليستنير برأيه فيما هو قادم عليه ، «فاستضاء برأيه فيما يريد فعله ، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه ، فأقام عنده إلى الظهر ، ثم ودعه ورحل»[٢] .

ولاشك إن إجماع المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين على اهتمامه بأخذ مشورة القاضي الفاضل ، إن دَلّ على شئ فإنما يدل على الثقة المكينة التي كان يتمتع بها الفاضل في أغوار نفس صلاح الدين ، لما لمسه منه ومن آرائه من نجاحات في خططه ومشروعاته ، تلك الآراء التي لاتخرج إلا من عقلٍ خبير ذي حكمة وفطنه وفكر صائب .

ومن الطريف أننا عثرنا على نظم للقاضي ابن الذَّروي المصري[٣] ، يصف فيه آراء القاضي الفاضل ، ويوضح تأثير آرائه هذه في الانتصارات التي أحرزها المسلمون على الأعداء . حيث يقول :

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي ... فلا ينتحله كل عضب ولهذم
وإن كان فيه للأسنة والظبي ... مساعدة فالفضل للمتقدِّم
تشير على الإسلام منك فراسة ... لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها ... قواطع بُتر أو نوافذ أسهم
ألا حبذا فتح نشرت لواءه ... وقلت لخيل الله ياخيل أقدمي
وقمت وقد نام الأنام مناجيا ... بمولاي نجِّ المسلمين وسَلِّمِ[٤]

(١) راجع سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٥ ؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ج٢ ق١ ، ص٣٢١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤م ، ج٢ ، ص١٢٥ ؛ راجع أيضًا ماذكره العماد في الفتح القسى ، ص٢١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ج١٠ ، ص١٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج٢ ، ص ٢٥٥ .

(٣) هو القاضي الوجيه رضي الدين أبو الحسن على بن يحيى بن الحسن بن أحمد ، المعروف بابن الذروي ، نسبة إلى ذروة ، وهي قرية بصعيد مصر . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٤٥ - ١٤٦ حيث أورد مجموعة من أشعاره .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٥ .

وفي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٢م أثناء محاصرة الصليبيين لعكا : في محاولة منهم لاستعادتها من المسلمين ، ذلك الحصار الشديد الذي انتهى بسقوط عكا في أيدي الصليبيين في جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/يولية ١١٩١م ، كان القاضي الفاضل في مصر يدبر شئونها نيابة عن صلاح الدين ، وكان من خلال موقعه هذا «يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر ، وتعمير الأسطول ، وحمل المال ، ونقل المير إلى عكا والسلطان يكاتبه في مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحًا ومسليًا ، وباحثًا عن مصالح الإسلام متقصيًا»[١] .

وقد استمر دور القاضي الفاضل القيادي البارز في الدولة الأيوبية بعد وفاة الناصر صلاح الدين [٢] ، ولم ينقطع عن العطاء ، وواصل مسيرته لمساندة أبناء صلاح الدين وتأييدهم ونصحهم لتخطي العقبات التي تعترض طريقهم ، وكان هدفه السامي من وراء ذلك الحفاظ علي وحدة الدولة الأيوبية وسلامتها ، لتقف شامخة أمام التحدي الصليبي ، بعد فقد عائلها وقائدها الناصر صلاح الدين الأيوبي .

وبعد وفاة صلاح الدين أقام القاضي الفاضل بدمشق عند الملك الأفضل ابن صلاح الدين ، فرأى في تصرفاته ما استنكره منه ، فنصحه كثيرًا ، ولكنه لم يستجب له ، لذلك فارقه واتجه إلى مصر حيث الملك العزيز ابن صلاح الدين .

فلما علم العماد الأصفهاني بترك القاضي الفاضل للملك الأفضل قال له : « لم تركت القاضي الفاضل يرحل ، والمُلكُ بتحوله يتحوَّل ؟ فقال : ما الذي كنت أفعله وهو لايَقْبل مني؟ فقلت : كان ينبغي أن تركب إلى داره وتفعل كل مايؤثره ، فكُنْتَ تملكُ به أمرك ، وتأمن به في ملكك[٣] . ولكن الأفضل لم يأبه ينصح العماد له ، واستمر فيما هو عليه .

وأثناء النزاع الذي حدث بين الملك الأفضل ، والملك العزيز فيما بين سنتي٥٩٠ - ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ - ١١٩٥م ، لجأ الملك العادل الأيوبي إلى القاضي الفاضل ليصلح ذات البين بين الأخوين ، وذلك لأن القاضي الفاضل «كان مطاعًا عند البيت الصلاحي ، لعلو منزلته التي كانت عند صلاح الدين»[٤] واستطاع الفاضل بما له من خبرة وحكمة أن يوفق بين الأخوين ، وتم الصلح بينهما على يديه .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٦٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٦١ .
(٢) كانت وفاة صلاح الدين في يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ . راجع التفاصيل في الروضتين ، ج٢ ، ص٢١٢ - ٢١٤ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ١٠ - ١٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٢٢٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص٢٤٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق د . سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ - ١٩٥٤م ، ج٣ ، ص١٣٤ - ١٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٥٢ - ٥٤ .

تلك كانت بعض مواقف القاضي الفاضل مع البيت الأيوبي ، وهي توضح مدى حرصه على بقاء الملك في أبناء صلاح الدين وأحفاده ، وتبين مدى حرصه على اجتماع كلمة المسلمين وعدم فرقتهم . وقد استمر في عطائه للبيت الأيوبي حتى كانت وفاته بالقاهرة في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ /١١٩٩م[١] .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه كان من أعلام الأدب العربي في فن النثر ، خاصة الرسائل الديوانية التي أمضى وقتًا طويلاً في كتابتها ، والتي صور فيها المواقع التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين تصويرًا فنيًا بليغًا ، وكانت هذه نعمة خصه الله بها دون غيره من عامة الناس .

فكانت رسائله مزدحمة بعدد لا حصر له من الصور البيانية الرائعة ، والأساليب الإنشائية المتعددة . فكل رسالة خطها كانت بمثابة لوحة فنية تعب صاحبها في رسمها حتى أخرجها في أبهى وأروع ماتكون .

ويلاحظ في رسائل القاضي الفاضل اختياره للألفاظ القرآنية ، وإيثاره لها ، وهي خاصة تميز بها أسلوبه ، تعرف بـ «نثر القرآن» ؛ فقد كان يتمتع بمقدرة فائقة على أن يدمج القرآن الكريم في كلامه ، فكأنه جزء من هذا الكلام[٢] .

وإلى جانب نثر القرآن امتاز أسلوب القاضي الفاضل بالسجع ، والطباق ، والجناس ، والمقابلة ، وتجسيم المعاني ، وتشخيص الجماد .

وخلاصة القول أن القاضي الفاضل الذي «تمثلت فيه ثقافة عصره كلها تمثلاً حسنًا ، قد استطاع - في مهارة وحذق - أن يفيد فائدة كبيرة من هذه الثقافة التي أخضعها لفنه ، وأن يمزج هذه الثقافة نفسها بهذا الفن ، مزجًا خرجت به الطريقة الفاضلية في زينتها ، فبهرت أعين الناظرين إليها ، وجعلتهم ينظرون إلى صاحبها على أنه عاهل الكتابة العربية في عصره»[٣] .

رحم الله القاضي الفاضل رحمة واسعة .

---

(١) راجع سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٨ - ١٦٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ، ج٧ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤م ، ج١ ، ص١٨٤ - ١٨٥ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ج٤ ، ص٣٢٤ .

(٢) راجع بعض هذه الرسائل في الروضتين ، ج٢ ، ص١٦٦ ، ص٢٣١ - ٢٣٣ ؛ صبح الأعشى ، ج٦ ، ص٤٩٦ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٤م ، ص٢٠٠ - ٢٠١ ؛ عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د .ت ، ص٢٨٠ - ٢٨٢ .

قائمة المراجع

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) :

* الكامل في التاريخ . بيروت ، ١٩٧٩م .

ابن تغرى بردي(أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) :

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، د .ت ، الجزء السادس

ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر ، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

*وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان . تحقيق د . إحسان عباس . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨م .

ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) :

*النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق د . جمال الدين الشيال .القاهرة ، ١٩٦٤م .

ابن العديم (عمر بن أحمد ، ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) :

* زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق د . سامي الدهان . دمشق ،١٩٥١ - ١٩٥٤م .

ابن العماد الحنبلي(عبد الحي بن أحمد بن محمد ، ت ١٠٨٩هـ /١٦٧٨م) :

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب . القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) :

* البداية والنهاية . تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) :

*مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق د . جمال الدين الشيال . القاهرة ،١٩٥٣ - ١٩٥٧م (الأجزاء من ١ - ٣) .

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧م) :

* الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق د . محمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، ١٩٦٢م .

* الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤م .

سبط ابن الجوزي(يوسف بن قزأغلي ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م) :

* مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . شيكاغو ، ١٩٠٧م ، ج٨ .

السبكي(عبد الوهاب بن علي ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) :

* طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق د . محمود الطناحي ، د . عبد الفتاح الحلو . القاهرة ، ١٩٦٤ ـ ١٩٧١م .

د . عبد اللطيف حمزة :

* أدب الحروب الصليبية . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٤م .

* الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول . القاهرة ، دار الفكر العربي ، د . ت .

العماد الأصفهاني(محمد بن محمد بن حامد ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) :

* الفتح القسى في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبح .
القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د . ت .

القلقشندي(أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

*صبح الأعشى في صناعة الإنشا . سلسلة تراثنا ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
(وهذه النسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩١١ ـ ١٩٢٢م) .

المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ /١٤٤٢م) :

* المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ .

* السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق د . محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج١ .